الصراع بين المغول والخوارزميين ودوره في اسقاط العاصمة بغداد

م.م. وديان ياسين غريب

كلية الامام الكاظم (عليه السلام)/ أقسام بابل

The Conflict Between the Mongols and Al-Kawarizmyeen and its Role in the Fall of Baghdad

Asst.Lec. Widyan Yaseen Gareeb

Collge of Imam Kadhum (P.U.H) / Departments of Babylon

Abstract

The research has dealt with the subjects chronologically and according to their importance to the current period. It includes an introduction which a general idea about the conditions in the Islamic East, the historical roots of the Mongols and the conflict between them and Al-Kawarizmyeen.

Key words: Jalal Al-Deen Menkuberty, Timujeen, Kawarizmyah, event of traders.

الملخص:

عالج البحث المواضيع وفق الأحداث الزمنية أو حسب أهمية الموضوع ومقتضاه في المرحلة وتضمن التالي: مقدمة ولمحة عن الأوضاع في المشرق الإسلامي، الجذور التاريخية للمغول والمغول وتوسعهم في المشرق الإسلامي والياسة ومبادئها والصراع بين الخوارزميين والمغول وحادثة التجار والصراع بين جلال الدين منكوبرتي وجنكيز خان ومن ثَمَ خاتمة.

الكلمات المفتاحية: جلال الدين منكوبرتي، تيموجين، خوارزمياه، خلاط، حادثة التجار.

المقدمة:

كانت طبيعة الأحداث في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع الهجري تنذر بوقوع كارثة إنسانية وتاريخية كبرى، فالخطر المحدق بالمرحلة يهدد وجود البشرية جمعاء بسبب ظهور المغول وتقدمهم العسكري الكبير وسوء تقدير الاحداث كان يعصف بكل الأطراف الداخلة في صراع مع المغول، ولذا نجد ان الكثير من المؤرخين سلطوا الضوء على جانب دون آخر ومن هنا كانت أهمية الموضوع من خلال تسليط الضوء على الأطراف مجتمعة، من أجل الخروج بصورة أكثر وضُوحاً عن المرحلة المهمة والخطرة في تاريخ المسلمين، أما طبيعة الدراسة فتارة تسلط الضوء على الجانب السياسي وتارة على الجانب الاجتماعي وتارة على الجانب العسكري وعلى الجانب التجاري حسب مقتضيات المرحلة وضروراتها ومدى تأثير ذلك على الاحداث.

قسم البحث الى مجموعة موضوعات عالجت المواضيع وفق الأحداث الزمنية أو حسب أهمية الموضوع ومقتضاه في المرحلة وفق منهجية البحث العلمي التاريخي فكانت العناوين كما يلي: مقدمة ولمحة عن الأوضاع في المشرق الإسلامي، الجذور التاريخية للمغول والمغول وتوسعهم في المشرق الإسلامي والياسة ومبادئها والصراع بين الخوارزميين والمغول وحادثة التجار والصراع بين جلال الدين منكوبرتي وجنكيز خان ومن ثَمَ خاتمة.

استعنت بمجموعة من المصادر والمراجع من اجل انجاز هذا البحث منها: الكامل في التاريخ لابن الأثير والمغول للصياد، واعصار الشرق لثروت عكاشة ولاين في كتابه المغول وكتاب علي الكوراني في كتابه كيف رد الشيعة غزو المغول وكتاب لمحمد محمد الصلابي (المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار وغيرها من المصادر والمراجع المهمة، واجهت الباحث مجموعة من المعوقات منها ازدحام الأحداث التاريخية في جانب واغفال بعض المصادر لأحداث مهمة في هذه المرحلة من الجانب الآخر ولكن تم التغلب عليها ولله الحمد أولا وآخراً.

أولاً / لمحة عن الاوضاع في المشرق الإسلامي:

حصلت صراعات في المشرق الإسلامي أسقطت العاصمة بغداد في ظل حكم العباسيين ويبدو ان هذا الصراع أسهم في تفكك مؤسسة الخلافة وبالتالي أدى الى سقوطها. فالمشرق الإسلامي كان يعج بالإمارات الإسلامية التي كان يتبع بعضها الخلافة العباسية

ولو كانت تلك التبعية تبعية اسمية الا انها رسمت ملامح الخلافة وبينت شكلها في تلك المرحلة، على انه يجب ان لا ننسى مدى تطور الاحداث السياسية والعسكرية في الشرق، فالمتابع لتلك المرحلة يلمح التطور السريع الذي طرأ على المغول وكيف أنهم اكتسبوا بحكم الموقع الجغرافي وبحكم الصراعات المستمرة مع الأمارات والدول في المشرق وبحكم التحالفات مع القبائل المجاورة لمناطق نفوذهم وبحكم الوحشية في التعامل وغيرها من العوامل التي بلورة قوة المغول والتي جعلت منهم قوة لا تقهر في تلك المرحلة هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن الأمارات في المشرق الإسلامي وحتى مؤسسة الخلافة لم تكن قادرة على مواكبة قوة المغول وليس لها بعد نظر عن كيفية التصدي لزحفهم، لا لأن المغول كانوا بمستوى عال فحسب بل ان الخلافة كانت تعاني في مراحل حكمها الأخير من فرض هيبتها أو محاولة أعادة تلك الهيبة التي كانت قد فقدتها منذ زمن ليس بقصير وربما الصراعات التي شهدتها الخلافة العباسية – خصوصا الصراعات الأسرية – قد أزالت والى حد كبير هيبة الخلافة، كانت هذه الأحداث المهمة في بداية (القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي). وبهذه الصورة المصغرة عن الخلافة والوضع السياسي والعسكري بوجه عام سأسلط الضوء على هذه المرحلة الخطيرة والمهمة في التاريخ الإسلامي عن طريق معرفة الظروف والأحوال العامة للعباسيين وللقوى المنافسة لهم.

ثانياً / الجذور التاريخية للمغول:

المغول هم قبائل بدوية تقطن في منغوليا كانت تحترف الرعي والصيد، كانت قبائل المغول متعددة لا يجمعها رابط ولا يحكمها قائد واحد وهي مختلفة فيما بينها، تتقاتل فيما بينها وتتنازع في بعض الأحيان، فالسلب والنهب والأسر والقتل والابادة لجميع الرجال هو ديدنها ومنطقها اثناء الحروب، يبدو ان المناخ الذي عاش في كنفه المغول ألقى بضلاله عليهم فالتقلبات الجوية والمناخ المتفاوت في درجات الحرارة الذي يصل في بعض الحالات –38 تحت الصفر وفي أيام القيض يصل الى +42 مئوية، جعل منهم متأثرين بهذه التقلبات ولذى نرى ان بعض سلوكياتهم جاءت متأثرة بفعل المناخ المتقلب وهذا ما يفسر لماذا يطلي المغول وجوههم وبعض مناطق اجسامهم بشحوم الحيوانات، أتقاءً من البرودة الشديدة، كما ان طبيعة التضاريس ايضاً أثرت تأثيراً مباشراً في صقل مهاراتهم ومنها التحرك بمهارة كبيرة وبسرعة فائقة في هذه المناطق التي تتصف بوعورتها وتعقيداتها الجغرافية وهي منطقة منغوليا وما يجاورها من مناطق جبلية ومتموجة مما أكسبهم قدرة وقابلية يصعب على من يواجههم مجاراتها[1]، لقد عمد زعيم المغول تيموجين والذي أخذ يعرف باسم جنكيز خان بالدور الأصعب في التاريخ المغولي اذ انه قام بما عجز عنه اسلافه من توحيد للقبائل المغولية المتفرقة ويبدو ان الظروف التي نشأ فيها تيموجين في طفولته والعناية الخاصة من ابيه (حيث جرى تعريض تيموجين لأشد أنواع التدريب في تلك الظروف الصعبة وتلك الظروف صقلت شخصية تيموجين الى حد كبير وجعلت منه فيما بعد قائداً لا يقهر – وقائد يواجه أصعب المواقف) بحيث جعلت منه (بعد مقتل ابيه على يد قبائل المركيت) وهو بعمر 13 عاما يحاول أن يتزعم قبائل المغول أو على الأقل ان يبقي ولاء أبناء قبيلته الصرحاء له حصراً[2]. ومهما يكن من أمر فأن المغول وعن طريق تيموجين بدأوا يفكرون جدياً في توسيع حدود السيطرة وبشكل كبير على مناطق تقع خارج مناطق نفوذهم.وبدأ تيموجين بالدخول في تحالفات سياسية، هذه التحالفات تمكن تيموجين من أن يوسع حدود مملكته أو أنه يضمن على الأقل عدم الهجوم أو الاعتداء على المناطق الخاضعة لنفوذه، ((يعتبر– جنكيز خان طاغية المغول ونبيهم الشخصية الأولى في المغول جنكيز خان، فهو أكبر ملوكهم الذي قاد حملتهم الأولى سنة 617 هجرية فشملت أكثر بلاد المسلمين وكل بلاد القفقاز وروسيا، وقسماً من أوروبا الشرقية، وقسماً من الهند. يعتبر [تيموجين](نبي المغول) بل يطيعونه أكثر من طاعة الأمم لأنبيائها وقد وضع لهم شريعة سماها (الْيَاسَة) فمشوا عليها في حياته وبعد مماته))[3].

أما عدد أولاده فأنه قد كان له عدد كثير منهم وأحاط نفسه بهالة من العظمة، حيث (أنه كان له عدة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسراري، وكان أعظم نسائه أوبولي من تيكي، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته، وكان له من هذه أربعة أولاد معدين

1 الحاج جاسم، سامي حمود، المغول نشأتهم، موطنهم، حروبهم الأولى، مجلة كلية التربية الأساسية - المستنصرية (بغداد – د. ت)، العدد 81، مج19، ص448-449.

2 عكاشة، ثروت، أعصار من الشرق (جنكيز خان)، ط 5، دار الشروق، (القاهرة – 1992م)، ص39 وما بعدها.

3 الكوراني، علي العاملي، كيف رد الشيعة غزو المغول، ط1، مركز العلامة الحلي، (بابل – 2006م)، ص12-13.

للأمور الخطيرة هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم، وهم توشي وجفطاي وهو أصغرهم، وأوكداي وأوتكين نويان، وأنه جعل موضعه نقطة دائرة ملكه وبنيه حوله كمحيط الدائرة، فجعل ابنه أوكداي ولي عهده ورتبة لما يتعلق بالعقل والرأي والتدبير والولاية والعزل واختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها، وكان موضعه في حياة أبيه حدود أيمك وقراباق، فلما جلس بعد أبيه على تخت الملك انتقل إلى الموضع الأصلي بين الخطا وبلاد الإيغور وأعطى ذلك الموضع لولده كيوك. وجعل لابنه أوتكين حدود بلاد الخطا، وعين لابنه الكبير توشي حدود قيالق وإلى أقصى سفسفين وبلغار، ورتبه على الصيد والقنص وجعل لابنه جفطاي حدود بلاد الأيغور إلى سمرقند وبخارا، ورتبه لتنفيذ النائبات والأمور والمقابلات))[1].

ثالثاً / المغول وتوسعهم في المشرق الاسلامي:

قبل الحديث عن طريقة توغل المغول والوسائل التي مكنتهم من الوصول الى المشرق الإسلامي لابد من التحدث عن العقيدة التي كانوا يؤمنون بها والتي ألقت بظلالها على تطورهم السياسي والعسكري وهي من أعطتهم الضوء الأخضر ان صح التعبير للتوجه نحو المشرق الإسلامي بل وحتى أوربا في عهد خلفاء جنكيز خان، ان عقيدة المغول عقيدة موضوعة من جنكيز خان الذي استطاع ان يُوجد فيها تطلعاته الشخصية وتطلعات قبائل المغول التي كانت تطمح في التخلص من خشونة العيش وارادت ان تبني لها حضارة وفكر وامبراطورية تمكنها من التواجد على مسرح الاحداث التاريخية، لقد أطلق جنكيز خان على عقيدته أسم (الياسة) أو (ألياسا) والتي من خلالها بدأت الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية للمغول تتأثر بها تأثراً كبيراً ومباشراً.

رابعاً / إلياسة ومبادئها:

لقد كانت مبادئ الياسا تشع من حياتهم الاجتماعية والدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية ومن مضامينها: ((أن من زنى قتل، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أعطي بضاعة فخسر ثم أعطي ثانيا فخسر ثم أعطي ثالثا فخسر قتل، ومن وقع حمله أو قوسه فمرّ عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل، ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به إلى الآن، وربما دان به من تحلَّى بحلية الإسلام من ملوكهم. ومن معتقدهم في ذبح الحيوان أن تلفّ قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه بيده حتّى يموت أو يخرج قلبه. ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح))[2]. ((انهم لا يهربون قبل ان يلتقوا العدوّ))[3].((محصنا كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيرا أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحدا شيئا فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم أميرا لا أسيرا، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا))[4]

ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أسكفة الخركاه{ عتبة الخيمة} ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت، وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفا كبيرا من أخبار جنكيزخان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله وإن كان مشركا بالله كان يعبد معه غيره، وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم))[5] ومنها أيضاً ((منع أن

1 القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ط 1، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت – د. ت)، 4 / 312.
2 النويري، أحمد بن عبد الوهاب نهاية الارب في فنون الادب، ط1، دار الكتب، (القاهرة – د. ت)، 27 / 401 ؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، 4 / 314.
3 ابن العبري، غرغوريوس، تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الميسرة، (بيروت – د. ت)، ص287 ؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، تاج العروس، ط1، تحقيق علي شيري، دار الفكر، (بيروت – 1994م)، 13 / 500.
4 ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ط1، تحقيق علي شيري، دار صادر، (بيروت – 1988م)، 140/13.
5 ابن كثير، البداية والنهاية، 13 / 140.

يقال لشيء إنه نجس، فإن جميع الأشياء طاهرة. ألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب. من تضخيم الألفاظ وروائع الألقاب، فلا يخاطب الشخص مهما علت مكانته إلا باسمه فقط. ألزم القائم بعده (النائب عنه) بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأن يعرض كل ما في عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج عند عرضه عاقبه. ألزم على نساء العساكر بالقيام بما على الرجال في مدة غيبتهم في القتال. رتب لعساكره أمراء ألوف وأمراء مئات وأمراء عشرات. لا بد أن يخضع أكبر الأمراء لما يصدر عليه من حكم ولو قام بتنفيذ هذا الحكم أخس من عنده. أمر بإقامة البريد حتى يعرف ما في مملكته بسرعة. أمر بتنظيم حلقات الصيد لما لها من الأهمية في التدريب على أساليب القتال))[1].

خامساً / الصراع بين الخوارزميين والمغول:

يبدو ان أول لقاء جمع بين السلام والحرب كان في عهد سلطان الخوارزميين محمد الذي التقى بالقوات المغولية التي كانت تطارد قوات المركيت في تلك المرحلة معتبرتها قوات ثائرة وفلول لأعدائها المنهزمين، فأوضحت القوات المغولية للسلطان محمد أنها تريد ملاحقة الأعداء وليس لديها نية في مهاجمة المسلمين أو مهاجمة بلدانهم، ولكن الغرور الذي كان يتحلى به سلطان الخوارزميين، وسوء تقديره لأعدائه، والاستهانة بخصومه، كل ذلك دفعه للخوض غمار حرب غير مدروسة وغير محمودة العواقب[2] ولولا شجاعة جلال الدين منكوبرتي قائد الجناح الأيمن للسلطان وهو الأبن الأكبر من بين أولاده الخمسة، لما تمكن الخوارزميين من مواجهة المغول، أو الصمود بوجههم، توقف القتال ليلا بين المغول والخوارزميين على ان يستأنف القتال في الصباح الباكر، ولكن المغول أدركوا واقع الحال وظروف المعركة التي كانت معطياتها تسير في غير صالحهم، فانسحبوا في جنح الليل المظلم موقدين النار في معسكرهم موهمين المسلمين بأنهم لا زالوا في موقعهم، لتكون هذه الحادثة (حادثة أوترار) هي من أوائل اللقاءات بينهم[3] ولكن كشفت هذه الموقعة للخوارزميين وللسلطان تحديداً حجم قوة المغول وحسن تنظيمهم ومقدرتهم العالية على المناورة مع خصومهم فكانت بحق موقعة لجس نبض قدرات المتخاصمين، أعتبر الدهاء السياسي أساساً للعلاقات الثنائية فيما بعد وأعَتبر ماحدث سابقاً حادثاً يؤسف له من الطرفين، رغم ان الخوارزميين قد أحزنهم احتلال المغول لبكين وسائر مناطق شرق آسيا التي بدأت تتهاوى أمام قدرات المغول ودهائهم العسكري[4].

سادساً / حادثة التجار:

اعتبرت حادثة التجار القشة التي قصمت ظهر البعير حيث مثلت منعطفاً في العلاقات الثنائية بين المغول والخوارزميين وأصبح العداء فيما بعد سائداً بين الفريقين، والمخاصمة والقتال هو شعار هذه المرحلة ولغة القتل عنوان هذه المدة، وملخص الحادثة، عندما وصلت سفارة من جنكيز خان معها هدايا وتضم معها تجاراً، يطلب جنكيز خان من السلطان الخوارزمي بعلاقات طيبة بين الطرفين وتسهيل عمل التجار وحرية تنقلهم في بلدان المسلمين من أجل التجارة فقط وفقط، ولكن الأسلوب في رسالة خان المغول كانت فيها عبارات أعتبرها السلطان الخوارزمي فيها تعالي عليه مما دفعه ذلك لاعتبارها اهانه شخصية موجهة له، كانت الحادثة في ربيع (615هـ/1218م) ولكن وافق السلطان على مضض من أجل تجنب الصراع بينه وبين المغول ثم حدث ما لم يكن في الحسبان عندما تم الاعتداء على قافلة تجارية للمغول كانت تحمل نفائس عظيمة ومقتنيات فاخرة، من قبل حاكم احدى الولايات الخوارزمية فكان ذلك إيذانا لبدء حرباً شعواء لا هوادة فيها[5].

بدأت تلك الحرب عندما طلب جنكيز خان زعيم المغول من السلطان محمد أول سلطان للخوارزميين بأن يسلمه حاكم ولاية اوترار – (اوترار هي آخر ولاية خوارزمية في بلاد الترك) – الذي هاجم القافلة الخاصة بالمغول، مما حدى بالسلطان عدم تسليمه

1 الأمين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ط2، باقري، (قم – 1417ه) ص78.
2 الصياد، المغول في التاريخ، ص96.
3 الصياد، المغول في التاريخ، ص98.
4 المصدر نفسه، ص98.
5 سليمان، أحمد عبد الكريم، المغول والمماليك حتى نهية عهد الظاهر بيبرس، ص24.

للمغول باعتباره ابن خال السلطان واسمه (ينال خان)[1] من جهة، ومن جهة أخرى ان تسليمه معناه اعتراف رسمي من السلطان بالتبعية للمغول وان جنكيز خان يمثل السلطة العليا في المنطقة وهذا ما لا يقبل به السلطان الخوارزمي مطلقا.

قاد جنكيز خان الزحف المظفر نحو دولة خوارزم، ليعلن وبصورة واضحة التوجه نحو البلاد الإسلامية معلناً عن ذلك عن طريق التوجه نحو بلاد ما وراء النهر ومن ثَمَ الى نهر سيحون ليكون اللقاء مع السلطان الخوارزمي، بدأت المناوشات بين الطرفين في حرب ضروس اجتمعت معها عوامل متعددة منها من جهة المغول : (التوسع – فرض مبدأ القوة – تأديب السلطان الخوارزمي ومن معه – الايذان بقيام دولة المغول العالمية) ومن جهة الخوارزميين (الدفاع عن الإسلام – السلطان الخوارزمي حاكم الشرق – الدفاع عن الوطن) وهكذا بين هذا وذاك والأهداف المتصارعة قبل الجيوش خاض الطرفان حرباً قاسية سقط فيها من الطرفان أعداد كثيرة من القتلى، فكان ولدي جنكيز خان (اوجاتاي) و(شاطاجاي) قد قادا جيشا الى حاكم أوترار الذي كان أساس الحرب، وكان ولده الثالث (جوشى) على رأس جيش ثاني، وكان ولده الرابع (تولي) قد التحق بوالده على رأس جيش ثالث، وكان جنكيز خان يقود الجيش الأول لدى المغول مع قواده، وبهذا اصبح هناك ضغط كبير جداً على السلطان الخوارزمي لكثرة الجيوش المجتمعة على قتاله، فادى ذلك الى سوء تدبيره مما أدى به الى ارتكاب خطأ فادح حينما قرر توزيع قواته الى مقاطعات الدولة الخوارزمية لحمايتها، لكنه قد فاته ان ذلك سيضعف قدرة قواته على المواجهة وان ذلك هو طموح جنكيز خان بأن يفرق قوات السلطان الخوارزمي حتى يسهل الانقضاض عليه وبالتالي ينتهي امره وبالفعل حدث ذلك[2] وتفرق جمع الخوارزميين وصاروا الى الهباء، عدم جدية السلطان في تحديد قدرة العدو واستخفافه بهم، وعدم الاستعداد بصورة صحيحة لمواجهة العدو كل ذلك قد أدى به الى الهاوية وأصبحت المدن تتهاوى امام المغول الواحدة تلو الأخرى وكان نهاية الامر بأن توفي سلطان الخوارزميين سنة (596هـ) وهو يتجرع مرارة الهزيمة وسقوط مدنه وأفول نجم سلطانه أمام قوة المغول التي لا تقهر في تلك المرحلة ليسدل الستار عن أحداث أكثر ضراوة وجدية على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية.

سابعاً / الصراع بين جلال الدين منكوبرتي وجنكيز خان والخلافة العباسية:

كانت طبيعة العلاقة بين المحاور الثلاث المشار اليها في العنوان اعلاه تقوم على أساس الفائدة والمصلحة، وكل طرف منهم يرى بأنه قاب قوسين من النصر فكان كل طرف يمني النفس بالسيطرة على أراضي الطرف الآخر، فالخلافة العباسية كانت تأمل ولو على نحو بعيد أن تعيد مجد أيامها الأولى – من جهة السيطرة بالقوة والقتل – بالسيطرة على مناطق، كانت فيما مضى تتبع لها بصورة مباشرة، وأصبح موضوع خروج الخلافة من ضعفها وسوء ادارتها امراً مستحيلا فكانت الخلافة تمني النفس بأن تبتعد عن موضوع التبعية الأسمية (الشكلية) وتُفعل موضوع التبعية المباشرة ولكن كل ذلك كان أضغاث أحلام إزاء ما موجود من ظروف مرت بها، فالسلطان الخوارزمي كان قد أشتهر في المشرق الإسلامي وكان ذلك يثير حفيظة الخليفة، فبدلا من انشغال الخليفة بالأمور السماوية والتبليغية (وظيفته كما يدعي) وتنفيذ الحكم الإسلامي على الرعية، راح ينشغل بالصيد ورمي النبال، وتربية الحمام الزاجل[3]، فبدلا من مواجهة العدو المشترك له وللخوارزميين، راح يتحالف مع أعدائهم من أجل اضعافهم واسقاطهم، وهو يجهل ويغفل ان كل ذلك سيوهن من عضد دفاعاته، ويجعل الباب مفتوحاً على مصراعيه الى بغداد، أما الخوارزميين فبعد مقتل السلطان محمد شاه الخوارزمي وانتقال السلطة لجلال الدين منكوبرتي الذي حاول بشتى الوسائل استرجاع ما ضاع في عهد ابيه الا ان قوة المغول ومقدرتهم العسكرية كانت أقوى من أن ترد، بل زيادة على ذلك أن المغول لما أحسو أن للخوارزميين علاقة تجارية مع البلغار لم يألُ جهداً ولم يدخروا وقتاً في مهاجمتهم رغم ان العلاقة بين الطرفين قد ولى عليها زمن طويل ولكن باعتبار ان البلغار من التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون بالفراء، فخاف المغول منهم لأنهم قد يقدموا المساعدة ويمدوا يد العون لهم[4] ولكن يبدو أن الصراع الداخلي الذي كان في الدولة

1 الصياد، المغول في التاريخ ص97 ؛ سليمان، المغول والمماليك حتى نهاية عهد الظاهر بيبرس، ص24 ومابعدها.
2 عكاشة، إعصار الشرق جنكيز خان، ص182.
3 سياقي، محمد دبير، السلطان جلال الدين خوارزمشاه في ميزان التاريخ، ط1، تر: أحمد الخولي، المركز القومي، (القاهرة – 2009م)، ص27.
4 مان، جون، جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث، ط1، تر: حسن عبد العزيز عويضة، دار الكتب الوطنية، (أبو ظبي - 2013م)، ص197.

الخوارزمية قوض عملية مواجهة المغول، حيث كان هناك صراع بين السلطان جلال الدين منكوبرتي واخوه غياث الدين الذي بدوره سحب أعداداً لا يستهان بها من القوات العسكرية في مرحلة كان جلال الدين يحتاج الى كل جندي ليواجه المغول بالإضافة الى الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك من قبل بعض ولاة الدولة الخوارزمية، وخير شاهد على ذلك ما حدث في أذربيجان[1] كل ذلك جعل من خوارزم لقمة سائغة ليتوجه المغول نحو الدولة الخوارزمية وليضربوا عليها حصاراً عانت منه الدولة الخوارزمية منه الأمرين، ثم طلب جيش المغول من جنكيز خان المدد فأمدهم بعساكر وقوات مما منح المغول مقدرة عالية من المناورة والمشاغلة، حتى استولى المغول على طرف المدينة ثم دخلوا من جانبها وأعمل فيهم السيف عمله حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولم يكتفِ للمغول عند هذا الحد بل أنهم عمدوا الى السد المقام على نهر جيحون فدمروه وأغرقوا المدينة ولذا من لم يقتل بالسيف فأنه مات بسبب انهيار السد وجرفه للمباني القريبة ومن لم يمت بذلك وكان مختبئاً مات غرقاً وأصبحت خوارزم خراباً [2] ان اكتساح خوارزم كان ايذاناً بتقدم المغول نحو الشرق واكتساح العالم الإسلامي بالرغم من ان المغول الأصليين بدأوا بالانصهار مع الشعوب المحررة والشعوب الساندة لهم مثل الايغيور وأصبحت المناصب على عاتق القادة والزعماء دون غيرهم واندمج الترف بحياة القساوة ليكون صورة أخرى للمغولي المقاتل[3]، ويبدو ان أهل الذمة الموجودين في الامصار الإسلامية ومنها خوارزم أرادوا التنكيل بالمسلمين انتقاماً منهم لما فعل بهم المسلمين أبان الفتوحات الإسلامية والتي – أي الفتوحات – تركت في نفوسهم جرحاً وألماً بسبب السياسات السلبية في التعامل لبعض قادة الفتح الإسلامي والتي بقيت شاخصة في أذهانهم الى ذلك اليوم الذي قالوا فيه لجنكيز خان ((سر فأنك مؤيد)[4] وأصبحت تلك القبيلة التي قادها جنكيز خان والتي كانت على ما يربو من ستة الالاف مقاتل[5] تحكم أقسام واسعة من الشرق بجيش يبلغ تعداده أكثر من مليونين جندي[6].

إزاء هذا التقدم الغير مسبوق في اعداد جند المغول يقابلها من الطرف الآخر تنازع بين الخلافة العباسية والخوارزميين زاد من الطين بلة وعقد الأمور لصالح المغول فها هنا يلتقي جيش الخلافة العباسية بزعامة قشتمر وجيش الخوارزميين في خوزستان بعد أن أنهك السفر جيش الخوارزميين حتى أنهم قاموا بنهب القرى التي في طريقهم[7]، فكيف نرجو ونحن المسلمين ان يدفع الله عنا شر المغول ونحن نتصارع فيما بيننا وهكذا أوهنت هذه الحروب كلا المجموعتين الخوارزميين والخلافة العباسية، بحيث أصبح هناك اندثار للقوة المضادة للمغول، ومهما يكن من أمر فأن العلاقة بين الخلافة العباسية والخوارزمية مرت بمراحل[8]:

1 – في عهد الخليفة الناصر لدين الله ساءت العلاقة بينه وبين جلال الدين منكوبرتي وصلت الى حد محاولة اسقاط العاصمة بغداد ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ولكن جلال الدين لم يكتفي عند هذا الحد بل راح يتحالف مع أعداء الخلفاء العباسيين وهذا ما حصل حينما تم عقد حلف بينه وبين صاحب دمشق المعظم عيسى صاحب.

2 – في عهد الخليفة الظاهر بامر الله (622هـ/1225م) كان عهد رخاء وسلام بينهم وبين الخوارزميين، فبدأت الخلافة العباسية تتجه نحو تحسين العلاقة بينها وبين الخوارزميين، حيث أرسلت الخلافة العباسية في هذه المرحلة رسولين لأثبات الصداقة وحسن النية وهما: نجم الدين الرازي وركن الدين بن عطاف وقد أمر الخليفة الأخير بالبقاء مع جلال الدين منكوبرتي، فنال ذلك استحسان سلطان الخوارزميين، فأرسل على اثر ذلك القاضي مجير الدين الذي قام بنقل الخلع وهدايا الخوارزميين للخليفة العباسي، وبادل

1 الصلابي، علي محمد، المغول(التتار) بين الأنتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، (شوبرا – 2009م)، ص161-162.
2 المدائني، ابن ابي الحديد، حملات الغزو المغولي للشرق، كما عاشها ابن ابي الحديد المدائني، تر: مختار الجبلي، لامارتون، (باريس – 1995م)، ص54 – 55.
3 لاين، جورج، عصر المغول، ط1، تر: تغريد الغضبان، مدارك، (أبو ظبي – 2012م)، ص34.
4 القصيبي، سعد بن عبد العزيز، نفوذ اليهود في عهد المغول الاليخانيين، ط1، مجلة الدرعية، السنة الثانية - العدد السادس والسابع،(السعودية- 1999م)، ص24.
5 الحاج جاسم، سامي حمود، المغول نشأتهم، موطنهم، حروبهم الأولى، ط1، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العدد 81، المجلد 19، ص10.
6 لاين، عصر المغول، ص35.
7 حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، ط1، دار الفكر العربي، (القاهرة – د. ت)، ص206.
8 حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص216 وما بعدها.

الخليفة سلطان الخوارزميين بالهدايا لكن ولسوء الحظ توفي الخليفة العباسي قبل وصول هدايا الخوارزميين مما أدى ذلك الى وأد فكرة الصلح أو تأجيلها ولو بعد حين.

3 – في عهد الخليفة المستنصر العباسي (623–640هـ/1226–1246م)

كانت هذه المرحلة عهد مشاكل وعداء بين الطرفين وتأزمت الحالة الى أن ساد العداء بين الطرفين الى ان قام الخوارزميين بمحاصرة خلاط (مدينة بارمينيا وفيها بحيرة لا يرى فيها السمك عشرة أشهر، للمزيد ينظر البلدان، ص591)، فادى ذلك الى عرض الصلح من قبل الخليفة المستنصر عن طريق مبعوث الخليفة (سعد الدين الحاجب) ليعقد الصلح بين الطرفين بشروط منها الاعتراف بالحكم الخوارزمي مع ارسال الخلع والهدايا، ومن جانب الخليفة كانت الشروط: عدم الاعتداء على الامراء المسلمين وعلى الخصوص صاحب الموصل وصاحب أربل. وعلى اثر ذلك بدأ عهد السلام بين الطرفين.

وبعد كر وفر بين المغول والعباسيين والخوارزميين وصل الحال الى ان يطلب السلطان الخوارزمي العون والمدد من الخليفة العباسي لكن كان ذلك ضرب من الخيال وأمراً غير متحقق لا محالة، فأدى ذلك الى مصرع سلطان الخوارزميين وتم قتله من قبل شخصاً كردياً أنتقاماً من السلطان لأخيه الذي قتله أثناء حصاره لمدينة أخلاط[1].

بالرغم من التحركات التي قامت بها الخلافة العباسية للوقوف بوجه المغول وبالرغم من الجهود الاستثنائية التي بذلت من بعض الخلفاء المتأخرين الا ان ذلك لم يكن أكثر من صحوة موت – ان صح التعبير – للوقوف بوجه الخطر القادم، ولم يكن هناك من مناص من سقوط الخلافة العباسية ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم العباسي (640–656هـ/1242–1258م)[2]، ان يقف بوجه الزحف القادم الى بغداد فسقطت العاصمة بغداد سنة(656 هـ / 1258م) [3] وانهي كلامي هذا بما جاء عن ابن الأثير الذي عاصر بعض الأحداث قائلاً عنها: ((لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه [رجلا] وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها))[54].

1سياقي، السلطان جلال الدين خوارزمشاه في ميزان التاريخ، ص167.

2 الصلابي، المغول (التتار) بين الأنتشار والأنكسار، ص44.

3 الطباطبائي، السيد علي، رياض المسائل، ط1، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي، (قم – 1991م)، 1 /59 ؛ الكوراني، علي العاملي، قبيلة بنو اسد بن خزيمة، ط1، تح: عبد الهادي الربيعي، شريعت، (قم - 2010م)، 5 / 77 ؛ الكوراني، علي العاملي، كيف رد الشيعة غزو المغول، ط1، مركز العلامة الحلي، (الحلة – 2006م)، ص83.

4 ابن الاثير، عز الدين بن ابي الكرم الحسن بن علي الشيباني، الكامل في التاريخ، ط1، دار صادر، (بيروت – 1961م)، 358/12.

الخاتمة:

هناك عدة محاور يمكن ان نستخلصها مما ذكرناه سابقاً منها:

1 – ان قوة المغول قد بنيت على أُسس وقوية ومتينة، فكانت مهارة قواتها القتالية كبيرة جداً.

2 – عدم مقدرة القوات الموجودة على مواجهة المغول بسبب التشتت وقلة التجهيزات.

3 – ان اكتساح المغول للأراضي كان معتمداً على أسلوب البطش والقتل وحرق المدن أو اغراقها، بحسب الموقع الجغرافي للمدينة.

4 – حضي المغول بتأييد أهل الذمة (اليهود والنصارى) من أجل الانتقام من المسلمين جراء سوء سلوك بعض قادة الفتح الإسلامي.

5 – استهانة السلطان محمد خوارزم شاه بالتهديد القادم من الشرق وعدم تقديره لحجم المخاطر الخارجية، كان سبباً في انهيار القسم الأكبر من المشرق الإسلامي.

6 – ضعف الخلافة العباسية في مد يد العون لأنها أصلا كانت ترزح تحت ضغط كبير من المعارك والحركات والانشقاقات في جسم الدولة العباسية.

7 – العداء المستمر بين الخوارزميين والعباسيين أضعف الطرفين وانهكهما، ومنعهما من مواجهة المغول فيما بعد.

8 – اعتماد كل طرف على الطرف الآخر من المتحالفين في لواء الدولة الخوارزمية أو الدولة العباسية مما أوهن العزيمة والمقدرة في مواجهة الاخطار.

9 – تشتت قوات الدولة الخوارزمية أمام المغول بسبب إصرار السلطان محمد الخوارزمي على المحافظة على سائر أملاك الدولة الخوارزمية فأفقده ذلك قوة قتالية كبيرة.

10 – سوء تقدير الخلافة العباسية حينما دخلت كطرف منازع وبالند من الدولة الخوارزمية فكان ذلك وبالاً على الطرفين. وكان من الأجدر بالدولة العباسية ان تدعم الخوارزميين لأنهم حائط الصد الأمامي للخلافة.

11 – كانت الفرقة بين المسلمين سبباً في تمكن المغول من احتلال المشرق الإسلامي ومن ثَمَ اسقاط العاصمة بغداد، ويذكرنا هذا بسقوط الموصل بيد داعش مع بعض المحافظات الأخرى، وكانت وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم حلا جذرياً لهم في مواجهة التحدي المغولي فكانت معركة عين جالوت رداً حاسماً على هذا الاحتلال وعلى هذه الهجمة الشرسة، مثلما كانت فتوى المرجعية لمواجهة تهديد داعش، تلك الفتوى التي وحدت العراقيين ضد العدو المشرك فبان النصر واتضح، وهذه من أهم فوائد التاريخ وهو أن يأخذ الأنسان السوي والعاقل واللبيب العظة والعبرة من أخبار الماضين ليتجنب أخطاء المستقبل أو يقلل من مدى خطورة الأحداث ولو على نحو يسير.

المصادر والمراجع

1) ابن الاثير، عز الدين بن ابي الكرم الحسن بن علي الشيباني، الكامل في التاريخ، ط1، دار صادر، (بيروت – 1961م).
2) الأمين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ط2، باقري، (قم – 2015م).
3) الحاج جاسم، سامي حمود، المغول نشأتهم، موطنهم، حروبهم الأولى، مجلة كلية التربية الأساسية – المستنصرية (بغداد – د. ت)، العدد 81، مج19.
4) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، ط1، دار الفكر العربي، (القاهرة – د. ت).
5) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، تاج العروس، ط1، تحقيق علي شيري، دار الفكر، (بيروت – 1994م).
6) سليمان، أحمد عبد الكريم، المغول والمماليك حتى نهاية عهد الظاهر بيبرس،ط1، دار النهضة العربية، (القاهرة – 1984م).
7) سياقي، محمد دبير، السلطان جلال الدين خوارزمشاه في ميزان التاريخ،ط1،تر:أحمد الخولي، المركز القومي، (القاهرة–2009م).
8) الصلابي، علي محمد، المغول(التتار) بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، (شوبرا – 2009م).
9) الصياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، ط1، دار النهضة، (بيروت – 1980م).
10) الطباطبائي، السيد علي، رياض المسائل، ط1، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي، (قم – 1991م).
11) ابن العبري، غرغوريوس، تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الميسرة، (بيروت – د.ت).
12) عكاشة، ثروت، أعصار من الشرق (جنكيز خان)، ط 5، دار الشروق، (القاهرة – 1992م).
13) القصيبي، سعد بن عبد العزيز، نفوذ اليهود في عهد المغول الاليخانيين، ط1، مجلة الدرعية، السنة الثانية – العدد السادس والسابع، (السعودية– 1999م).
14) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ط 1، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت – د. ت).
15) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ط1، تحقيق علي شيري، دار صادر، (بيروت – 1988م).
16) الكوراني، علي العاملي، كيف رد الشيعة غزو المغول، ط1، مركز العلامة الحلي، (الحلة – 2006م).
17) الكوراني، علي العاملي، قبيلة بنو اسد بن خزيمة، ط1، تح: عبد الهادي الربيعي، شريعت، (قم – 2010م).
18) لاين، جورج، عصر المغول، ط1، تر: تغريد الغضبان، مدارك، (أبو ظبي – 2012م).
19) مان، جون، جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث،ط1،تر:حسن عبد العزيز عويضة، دار الكتب الوطنية، (أبو ظبي– 2013م).
20) المدائني، ابن ابي الحديد، حملات الغزو المغولي للشرق، كما عاشها ابن ابي الحديد المدائني، تر: مختار الجبلي، لامارتون، (باريس – 1995م).
21) النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الارب في فنون الادب، ط1، دار الكتب، (القاهرة – د. ت).